مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة1 المجلد(20) – العدد (02) (الشهر،السنة)- ص51-68
ISSN 1111-5149 /E.ISSN 2430-2588

الطريق إلى الحداثة عند جورج طرابيشي

The Way to Modernity for George Tarabichi

عمار بوزيزه [1] جامعة الجزائر 2aminhayat755@gmail.com

تاريخ الاستلام:03-10-2019 تاريخ القبول:23-10-2019

ملخّص:

ما زال جسد الأمة العربية مثخنا بالجراح؛ هذه الجراح التي لم تلتئم بعد، ومازال الإنسان العربي مزعزع الكيان والوجود؛ بسبب الصدمات التي تلقاها من الإنسان الغربي الذي خطى خطوات عملاقة إلى الأمام إلى حياة أفضل على كل المستويات، أما الإنسان العربي ما زال يتحرك لكن كحركة الجندي في نفس المكان، ولقد قدم المفكر السوري**"جورج طرابيشي"** لا نقول وصفة طبية سحرية لتشفي جراح الإنسان العربي؛ ولكن طريقة لعلاج هذه الجروح والدفع بالإنسان العربي ليخطو في نفس الدرب الذي سار فيه الإنسان الغربي بخطوات ثابتة نحو التقدم والتطور. يعالج هذا المقال الحداثة بعيون طرابيشي؛ ومن خلاله نخلص إلى أن الحداثة تقوم على العلمانية والديموقراطية، وأنها لا تُخلق من العدم بل هي ثمرة الحصول عليها يحتاج إلى برميل من العرق.

الكلمات المفتاحية: الحداثة، التراث، الجرح النرجسي، العلمانية، الديموقراطية.

Abstract

The Arab nation is still suffering of many painsand the Arab man is still threatened because of the shocks that he received from the western man who moves with big steps to a con formidable life in all levels.The Arab man moves as a soldier in the same place. The Syrian **George Tarabichi,**a thinker, gave some solutions to treat these problems and push the Arabs to go in the same way as the Europeansdid towards development and progress.The text talks about "Modernity" as **Tarabichi** sees it and through it wecan say that" Modernity" is democracy and secularism.To reach it, a lot of efforts should be done.

Keywords: Modernity; Heritage; Narcissistic Wound; secularism; democracy

[1] المؤلف المرسل

مقدّمة

لقد أسالت إشكالية الحداثة الحبر للكثير من المثقفين العرب منذ أن تلقوا أولى الصدمات من الغرب المتقدم، وتعد هذه الإشكالية اللبنة الأساسية لمشاريع الكثير من المفكرين العرب، حيث تناسلت الكثير من الإشكاليات في أذهان هؤلاء المفكرين؛ وبدأت جملة من الأسئلة تأخذ مواقعها في المجال التداولي العربي مثل : لماذا تقدم الغرب وتأخر العرب والمسلمون؟ وكم كان الجرح عميقا وأثره بالغا حينما اكتشف هؤلاء أن الذات العربية في تقدم ليس إلى الأمام بل إلى الخلف، ولقد ارتبط مفهوم الحداثة بعدة مفاهيم أخرى مثل الأخلاق والفن والتراث؛ هذا المفهوم الأخير الذي عالجه الكثير من المثقفين العرب كل له وجهة نظره الخاصة؛ فهناك من يرى أنه يمثل عقبة أمام التقدم والتطور، وهناك من يرى أنه يجب تطهيره من الشوائب ليكون دافعا نحو التقدم، وهناك من يرى أنه لا يمكن التقدم دونه، ويعد المفكر السوري جورج طرابيشي واحد من الذين عالجوا إشكالية الحداثة، فيا ترى ما هو موقف المفكر السوري من هذه الإشكالية؟ وكيف عالجها؟ وما هي أهم المقترحات التي قدمها لتحقيق حداثة عربية؟

وفي هذا البحث سنحاول التعرض إلى تصور المفكر السوري لمفهوم الحداثة، وما أهم المفاهيم التي ارتبط هذا المفهوم، وكيف تتحقق الحداثة.

أولا: الإنسان والجرح النرجسي الكوني :

إن مصطلح "**الجرح النرجسي الكوني**" استقاه جورج طرابيشي من خلال المقال الذي كتبه **فرويد** عام 1917 تحت عنوان "**صعوبة أمام التحليل النفسي** حيث نشأ هذا الجرح عن الإذلال الذي تعرضت له كبرياء البشرية ثلاث مرات على التوالي بسبب تقدم العلم وتوالي كشوفه.(طرابيشي، 2006، ص 93)

ولقد كان أول تلك الجراح هو **الجرح الكسمولوجي** وهو الذي أحدثته نظرية كوبرنيكوس عندما غيرت قطب المركزية في النظام الفلكي وأقرت أن الأرض هي التي تدور حول الشمس وليس العكس؛ بعد أن كان الإنسان لقرون طوال يعتقد أن الأرض هي المركز والشمس تدور حولها، فكانت هذه الحقيقة مؤلمة بالنسبة إلى عزة البشرية(المصدر نفسه، الصفحة نفسها)

ثم كان بعد ذلك **الجرح البيولوجي** وهو جرح تسببت فيه نظرية انقلابية ثانية هي نظرية داروين، حيث اكتشف الإنسان حقيقة جارحة أخرى للنرجسية البشرية الكونية، فالإنسان الذي طالما تفاخر بأصله السماوي وتصور نفسه مخلوقا من روح اللّه وعلى صورته، وجد نفسه مكرها تحت ضغط البرهان العلمي أنه منحدر من سلالة حيوانية. (المصدر نفسه، الصفحة نفسها)

أما ثالث الجروح النرجسية فكان **جرح سيكولوجي**؛ فلقد أسسه عالم النفس **"فرويد"** فالتحليل النفسي مثّل هو الآخر نظرية انقلابية؛ فالنفس لم تعد مع **"فرويد"** مركز ذاتها، حيث تم اكتشاف اللاشعور، فاتضح أن قرارات الإنسان الذي لطالما تباهى بحيازته ملكة الوعي؛ كثيرا ما تكون مُتعينة بالعمق اللاشعوري أكثر من السطح الشعوري.(المصدر نفسه، ص ص 93، 94)

ثانيا: الجرح الأنثروبولوجي أو صدمة الحداثة:

إن الإنسان الذي تحدث عنه **"فرويد"** والذي تلقى صدمات سببت له تلك الجراح الآنفة الذكر – **الجرح الكوسمولوجي والبيولوجي والسيكولوجي** – هو الإنسان بألف ولام التعريف؛ الإنسان في مطلقيته، لكن صاحب مشروع نقد النقد يرى أن العالم النمساوي لم يكن أكثر دقة لأن الإنسان المعني بذلك الجرح هو **الإنسان الغربي** الذي كان يتهيأ ليؤسس نفسه إنسانا **كونيا**؛ والذي سرعان ما جعل من ذاته مركزا للأرض، أما الإنسان الغير غربي فقد اكتشف نفسه متأخرا في مرآة الغرب المتقدم.(طرابيشي، مصدر سابق، ص 94)

و**الجرح الأنثروبولوجي** في الحالة العربية كان مضاعفا، حيث اقترن فيها السؤال: لماذا تقدم الغرب؟ بسؤال آخر لا يقبل عنه انفصالا لماذا تأخرنا نحن العرب المسلمين؟ فالذات العربية حينما اكتشفت تقدم الآخر كان ذلك صعب ولكن اكتشاف أنها تأخرت كان ذلك أصعب يقول المفكر السوري { **فاكتشاف تقدم الآخر قد يكون في ذاته مفجعا للذات، ولكن اكتشاف تأخر الذات هو لهذه الذات بمنزلة مأساة**}(المصدر نفسه، الصفحة نفسها)

وهذا الاكتشاف كان بمثابة صدمة أثرت في لاشعور الإنسان العربي، ومازال يعيش تحت وطأة هذه الصدمة، وإذا حدث أن نسي يوما ذلك وجد من يذكره. ولما كان ناتج الصدمة هو التوتر؛ فقد يتخذ التوتر سمة لتشخيص الأزمة، والتوتر هذا تأزم

يحدث على مستوى الوجدان العربي، وعندما تنتقل الأزمة من المستوى الوجداني إلى المستوى الفكري نكون بذلك قد انتقلنا إلى أزمة التنظير.(بوقاف، 2017، ص ص 160، 161)

هذه الهزائم جعلت الإنسان العربي متصدعا ومزعزعا من الداخل قابلا للنكوص، ـ ويطلق النكوص عندما يسلك الفرد سلوكا يميز المراحل المبكرة من النمو، وحتى عند الراشدين من الممكن أن نجد بعض الأفراد الذين يلجئون إلى البكاء والصراخ أو العودة إلى المنزل لأمهاتهم كمحاولة للتغلب على المشكلة، ويمكن تفسير ذلك من منطق أن هذه السلوكات سبق أن حققت رغباتهم في الطفولة ـ (عويضة، 1996، ص 21.)

وكذلك يكون قابلا للارتداد؛ ومن أجل إعادة الاستقرار لهذا الإنسان لابد من تنشيط الوعي وبناء تفكير متماسك من شأنه إعادة بناء الإنسان العربي من الداخل؛ وتحصينه من جرثومة الردة والارتكاس، ورفع وسائل التخويف عنه وبعث الثقة فيه.(سليمان، 1979، ص 124)

ومن رحم الجرح الأنثروبولوجي ولد عصر النهضة العربي الذي { **لم يكن معنيا حسب طرابيشي بالقطيعة مع عصر الانحطاط (...) بقدر ما كان معنيا بالرد على الجرح الأنثروبولوجي. وكما في كل جرح نرجسي، في علم النفس الفردي كما في علم النفس الجمعي، لم يكن أمام الرد إلا أن يتخذ أحد شكلين: إما محاولة إنكار الجرح بالذات، وإما محاولة إبرائه ولأمه وعصر النهضة جسد المحاولتين كلتيهما}**

إن الصدمة التي سببها تقدم الغرب للعرب وُلدت ما يسمى في الفكر العربي الحديث **النهضة**، ويورد المفكر السوري عينة تمثيلية ثلاثية لأبرز ثلاث تيارات: التيار العقلاني المعتدل أو النسبي، والتيار السلفي المتنور، والتيار السلفي الخالص، ويميز المفكر السوري كلمة صدمة CHOCK وبين كلمة رضَّة TRAUMA فما الفرق بينهما؟ إنه فارق **كمي** فإذا كانت شحنة التنبيه ضمن طاقة احتمال الجسم المصدوم وقابلة للهضم وإعادة التوظيف تحولت إلى قوة دفع.(طرابيشي، 1991، ص 18)

وكلمة رضة: الرض: الدق، والجَرشُ، وهو رضيض ومرضوض، ورضاض الشيء: ما رُضَّ عنه، والرَّضراض: الحصى وصغارها، وأرَضَّ: أبطأ، وثَّقُل، ورضرضه: كسره، والحجارة تَتَرضرَض: تتكسَّر...(الفيروزآبادي، 2011، ص ص 690، 691.)

أما محمد عابد الجابري فيرى أن العرب وجدوا أنفسهم عند بدأ يقظتهم { **أمام نموذجين حضاريين: الحضارة الأوروبية التي كان تحديها لهم – ثقافيا وعسكريا –**

المهماز الذي أيقضهم وطرح مشكلة "النهضة" عليهم، والحضارة العربية الإسلامية التي شكلت، ولازالت تشكل، بالنسبة لهم، السند الذي لابد منه في عملية تأكيد الذات لمواجهة ذلك التحدي}(الجابري، 1994، ص ص 22، 23)

ويذهب صاحب مشروع نقد النقد إلى أنه إذا كانت شحنة الصدمة من التنبيه فوق طاقة احتمال الجسم المتلقي؛ كان لها مفعول عكسي فبدلا أن تبعث في الجسم المعني آليات الدفاع والتكليف الواعي تطلق فيه على العكس الآليات اللاشعورية للعزوف عن الواقع وعدم مواجهته؛ من خلال إلغاء العقل النقدي. (طرابيشي، 1991، الصفحة نفسها)

والفارق أيضا بين الصدمة والرضة هو فارق **كيفي** فالصدمة مفهوم فيزيائي في الأصل، أما الرضة فمأخوذة هنا بالمعنى النفسي وتتجلى الطبيعة الفيزيائية للصدمة في وظيفتها التغيرية؛ تغيير الذات وتغيير الواقع الخارجي معا؛ وإذا كانت الصدمة تستنفر الوعي على هذا النحو وتشحذه وتجعله أكثر حساسية بالواقع الداخلي والخارجي؛ فإن الرضة تستنفر اللاشعور فهي تخدر حساسية الوعي وتفتح الأبواب أمامه للهروب من الواقع بدلا من مواجهته.(المصدر نفسه، ص ص 18، 19)

ثالثا: الجرح الأنثروبولوجي والإنتلجنسيا:

بعد الصدمة التي تلقاها العرب واكتشافهم أن الغرب متقدم عنهم، وأنهم متأخرون كانت هذه الصدمة لها تأثيرها الخاص في بداية الأمر على النخبة كما يقول طرابيشي؛ حيث اعتمل هذا الجرح { **أول ما اعتمل في أعماق النخبة المثقفة التي كانت في حينه أزهرية، فالأزهر الذي كان نابليون في حملة 1798 يسميه " سوربون مصر " كان هو المستودع والملجأ الأخير للثقافة العربية الإسلامية في زمن تغرب هذه الثقافة عن نفسها، بل عن لغتها في ظل السيادة العثمانية والحكم المملوكي}**(طرابيشي، 2006، ص 95)

إن الصدمة كانت واحدة وسط النخبة المثقفة والقاسم المشترك بين هؤلاء المثقفين ومختلف الاستراتيجيات النهضوية هو ضرورة **التغيير**؛ بداية بشيخ الأزهر في زمن الحملة الفرنسية **"حسن العطار" {1776/ 1835}** الذي لخص بقوله -هذا الدرس الذي استفاده من الحملة النابليونية- **{إن بلادنا لابد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم ما ليس فيها}**(طرابيشي، 1991، ص 18)

وبدوره أكد تلميذ "**حسن العطار**" "**رفاعة رافع الطهطاوي**" {**1873/1801**} على الحاجة الكبرى إلى التغيير لكي تستيقظ سائر الأمم من نوم الغفلة؛ وأن يبحثوا عن العلوم البرانية والفنون والصنائع كما هي ببلاد الإفرنج. يقول الطهطاوي{ **ولا ينكر منصف أن بلاد الإفرنج الآن في غاية البراعة في العلوم الحكمية وأعلاها في التبحر في ذلك، بلاد الانجليز والفرنسيين، والنمسا، فإن حكمائها فاقوا الحكماء المتقدمين، كأرسطو طاليس، وأفلاطون وبقراط وأمثالهم وأتقنوا الرياضيات والطبيعيات، والإلهيات، وما وراء الطبيعيات أشد اتقان**}(الطهطاوي، 2012، ص 30)

لذلك لابد من الاستفادة من علوم هؤلاء حتى ولو كانوا مخالفين لنا في الدين.

أما "**خير الدين التونسي**" فيبني استراتيجية التغيير هذه على دعامتين: الإغراء والتحذير، إغراء ذوي الغيرة من رجال السياسة والعلم، وتحذير ذوي الغفلة من عوام المسلمين من مغبة معارضة ما يفعله مشروع التغيير بحجة عدم جواز الاقتداء بما تفعله الأمة الإفرنجية.(طرابيشي، 1991، ص ص 18، 19)

ولقد كان لهزيمة 1967 وقعها على الإنتلجنسيا العربية؛ حينما اكتشفت الذات ضعفها أمام الآخر؛ فهناك الكثير من الأدباء جسدوا هذه الهزيمة في أعمالهم الفنية؛ فهذا "**عبد الرحمان منيف**" في روايته "**حين تركنا الجسر**" يجسد من خلال بطله "**زكي النداوي**" الذي لا تاريخ له سوى تاريخ الهزيمة وعلى وجه التحديد هزيمة 1967 الحضارية بقدر ما هي عسكرية. (طرابيشي، 2013، ص 201)

ومن المعلوم أن صاحب مشروع نقد النقد خصص ما يزيد أن ربع قرن لقراءة أعمال الجابري، حيث نجده يقول أن صاحب نقد العقل العربي في كتاباته يلعب على الأوتار النفسية، وهذا ما قد يخدر الحس النقدي لدى القارئ العربي ويشل قدرته على المحاكمة، والاستراتيجية المبطنة بغلاف ابستمولوجي لخطاب الجابري تسعى إلى تضميد الجرح النرجسي للعرب، فالقارئ العربي أسير هذا الجرح الذي لم يندمل منذ قرنين من الزمن.(طرابيشي، 1996، ص ص 69، 70)

رابعا: صدمة الحداثة ومفهوم الثقافة والتراث عند العرب:

يشير صاحب مشروع نقد النقد إلى أن الثقافة العربية الإسلامية { **كانت تجهل حتى أنها ثقافة فإلى حين الحملة النابليونية على مصر كانت كلمة "ثقافة" بالذات مستبعدة من الحقل التداولي**}.(طرابيشي،2006، ص 95)

حيث لم يكن لهذه الكلمة سوى معناها اللغوي الموجود في **"لسان العرب"** بأنه "الحذق" يقول في ثقف: ثَقِفَ الشيء ثَقفًا وثِقافا وثقوفة: حذقه...ويقال ثَقُف الشيء وهو سرعة التعلم، وثَقِفته إذا ضفرت به، وثقف الرجل ثقافة أي صار خفيفا...ومنه المثاقفة.(ابن منظور، دس، ص 492)

إن غزو نابليون لمصر كان يمثل النموذج الصادق للاستيلاء العلمي الحقيقي على ثقافة ما، من جانب ثقافة أخرى أقوى منها، إذ أن احتلال نابليون لمصر آذن بدوران عجلة الروابط بين الشرق والغرب، كما أن حملة نابليون كان لها ثمار علمية جماعية عظيمة، حيث قام نابليون بتجنيد عشرات العلماء حيث كان يريد إعداد أرشيف حي للحملة، فالغزو ثقافي أيضا ولم يكن عسكري صرف(سعيد، 2006، ص ص 100، 153)

يؤكد طرابيشي أن التحول الدلالي في لفظة الثقافة من معنى "الحذق" إلى "جملة المعارف المكتسبة" جدير بالاهتمام والبحث التاريخي، حيث أن التحول الدلالي في معنى **"الثقافة" "culture" قد تم من خلال تأثير المثاقفة Acculturation**، فلولا اللقاء مع الحداثة الغربية لظلت كلمة ثقافة تعني في قرننا الواحد والعشرون ما كانت تعنيه في القرن الثامن ميلادي.(طرابيشي، 2006، الصفحة نفسها)

وفي اللغة الفرنسية كلمة culture تعني: حراثة، زراعة، تعليم، وتحسين، وتربية الأسماك والدواجن، تتعلق بالمجال الزراعي، بينما كلمة culturel تعني كل ما يتعلق بالثقافة الفكرية. (Girard , cass tld, p :216.

أما في الغرب فالتطور الدلالي الحاسم الخاص بكلمة "ثقافة" والذي سمح بابتداع المفهوم حدث داخل اللسان الفرنسي؛ في عصر الأنوار قبل أن ينتشر بواسطة الاقتراض اللساني داخل اللسانين المجاورين **"الإنجليزي والألماني"**، ويمكن اعتبار القرن الثامن عشر فترة تكوّن معنى الكلمة المعروف حديثا، فهي قبل ذلك كانت تتعلق بالمجال الفلاحي والأرض المحروثة؛ وأصبحت تدريجيا تعني تكوين الفكر وتربيته لاحقا.(كوش، 2007، ص ص 16، 18)

والمفارقة الجديرة الذكر حسب المفكر السوري هي أن **{ مفعول المثاقفة هذا أي التأثر بالثقافة الغربية الوافدة امتد إلى واحد من الألفاظ/ المفاهيم التي تبدو للوهلة الأولى أكثر اتصافا بالصفة التراثية الأصيلة، عنينا كلمة "التراث" نفسها، فإلى**

حين الحملة النابليونية على مصر على الأقل، لم تكن كلمة تراث تعني إطلاقا ما تعنيه لنا اليوم}(ابن منظور، مرجع سابق، ص 4809)

وبالإحالة دوما إلى "لسان العرب" فإننا نجد أن كلمة "تراث" ما كانت تعني شيء آخر سوى "الإرث" و"الميراث" بالمعنى المادي للكلمة، حيث ورد في لسان العرب أن الورْثْ والوَرثُ والإرْثُ والوراَثُ والإرَاثُ والتُرَاثُ واحد، وعلى لسان الجوهري: المِيرَاثْ أصله مِوراَث انقلبت الواو لكسرة ما قبلها، والتُراثْ أصل التاء فيه واو، وعلى لسان ابن سيده: والورثُ والتُرَاث والمِيرَاث: ما وُرث وقيل: الورثَ والتُرَاث في المال، والإرْثُ في الحسب.(المصدر نفسه، ص ص 95، 96)

وجدير بالذكر أن الجرح النرجسي كأي جرح لابد أن يشفى، والرغبة في تضميد هذا الجرح خاصة بعد هزيمة 1967 التي كشفت عن مآزق الثورية وفشلها، وهذا ما أدى إلى نقل الصراع الأيديولوجي إلى ساحة التراث؛ وكذلك تبلور أيديولجيا تراثية خالصة؛ أي أيديولوجيا تريد الاستغناء عن كل أيديولوجيا "مستوردة" لتنزل التراث منزلة الأيديولوجيا.(طرابيشي، 2012، ص 8)

وفي كتابه **"مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة"** يورد المفكر السوري نصا يوضح كيف كان الانشغال بالتراث حيث يقول: { **من ناحية أولى رغبة مسبقة في تبرئة التراث، ومن الناحية الثانية رغبة مسبقة في تجريمه. وبين كلتا الرغبتين المتعارضتين ضاعت الحقيقة التاريخية، هذه الحقيقة التي ستظل ضائعة ما دامت لا تحترم في موضوعيتها، بعيدا عن شاغل التثمين أو شاغل التبخيس (...) والتي لا سبيل إلى احترامها في موضوعيتها إلا باتخاذها موضوعا للتحليل العلمي، لا شاشة للإسقاطات الأيديولوجية التي لا تعدو هي نفسها في أغلب الأحيان شاشة للإسقاطات النفسية التي يقوم لها الجرح النرجسي مقام المحرك}**(المصدر نفسه، ص 12)لأجل ذلك على الباحثين التعامل مع التراث تعاملا موضوعيا والتخلص من الأفكار المسبقة وعدم إقحام الذاتية أثناء الدراسة؛ من أجل الوصول إلى الحقيقة.

خامسا: الحداثة والعلمانية والديموقراطية:

يركز **"جورج طرابيشي"** على تحقيق قيم الحداثة بركيزتيها- **الديموقراطية والعلمانية**- في الأذهان قبل الأعيان، فحينما يحمل كل فرد قيم وأفكار العلمانية والديموقراطية في ذهنه أولا؛ ثم في سلوكاته وتصرفاته حينها فقط سيحقق

المجتمع الحداثة، يقول المفكر السوري { **ففي صندوق الرأس، وليس فقط في صندوق الاقتراع، يمكن أن نشق الطريق إلى الحداثة بركيزتيها الاثنتين: الديموقراطية والعلمانية**}(مجموعة مؤلفين، 2007، ص 36)

فالحداثة تتحقق بواسطة دعامتين: الديموقراطية والعلمانية

1 العلمانية:

من خلال التنقيب عن أصل مصطلح العلمانية اهتدى صاحب مشروع نقد النقد إلى أن مصطلح "**العلمانية**" تعود جذوره إلى **اللاهوت المسيحي** حيث يقول: { **ولكن التنقيب عن أصل هذا المصطلح أتاح لنا أن نربطه باللاهوت المسيحي المكتوب بالعربية وهذا منذ القرن الرابع للهجري / العاشر ميلادي على الأقل**}(طرابيشي، 2006، ص 216)

من منطلق أن هناك كتاب بعنوان "**مصباح العقل**" وضعه اللاهوتي "**سيروس بن المقفع**" المولود سنة 910م حيث يقول في هذا الكتاب الذي يقتطف منه طرابيشي نصا وردت فيه كلمة العلمانية { **وقد رأى المتقدمون بعد ذلك رأيا في الأساقفة، أما المصريون فرأوا أن يكون الأسقف بالإسكندرية خاصة، بتولا لم يتزوج في حال علمانيته. وأما النسطورية والسريان فرأوا أن يكون الأسقف البتة ممن تزوج قبل أسقفيته**}(طرابيشي، 2006، الصفحة نفسها)

بين طوره الدنيوي وطوره الكنسي، إذ يشترط فيه البتولية "**عدم الزواج**" في حال علمانيته، وعليه فعين **العلمانية** يجب أن تُعجم بالفتحة لا بالكسرة لأنها لا تحيل إلى العِلم بل إلى العَالم أي الدنيا، وهذا هو أصلا معنى الجذر اليوناني laikos واللاتيني laicus الذي اشتقت منه كلمة علمانية Laicité (المصدر نفسه، ص 217)

ويؤكد جورج طرابيشي على أن مسألة العلمانية مسألة متعلقة بالسياسة لا بالدين فالعلمانية حسب مفكرنا لا تدعو إلى نفي واستبعاد الدين لأن هذا الأخير ضروري في حياة الإنسان؛ إنما ما ترمي إليه العلمانية هي وضع الدين في مرتبة أحسن من المرتبة التي يتدخل فيها بأمور الدولة والسياسة. كما أنها آلية وفلسفة للعيش المشترك. يقول جورج طرابيشي: { **ذلك أن العلمانية فلسفة وآلية لتسوية العلاقات لا بين الأديان المختلفة فحسب بل كذلك بين الطوائف المختلفة في الدين الواحد**}(مجموعة مؤلفين، مرجع سابق، ص 16)

والصراعات كثيرة في الوطن العربي مثل الصراع السني/الشيعي هذا الصراع ضاربة جذوره في التاريخ؛ ولولا تغييب الحل العلماني لتجاوز المسلمون هذا التناحر كما تجاوزه الكاثوليك والبروتستانت بفضل العلمانية، والتاريخ الإسلامي يحوي في صفحاته الكثير من اللحظات الدموية الشنعاء مثل مقتل الحسين في كربلاء ومعه الكثير من أهل البيت ووصفها طرابيشي أنها حادثة مأساوية يقول: { **وقعة كربلاء التي تمخضت في عام واحد وستين للهجرة من مقتل الحسين، حفيد الرسول واثنين وسبعين من أهل بيته وأصحابه (...) وقد ُاحتزت رؤوس القتلى الثلاثة والسبعين جميعا، وحملت إلى يزيد بن معاوية في دمشق بعد أن طيف بها في الكوفة**} (المرجع نفسه، ص 17) لذلك إذا ما أراد رجال السياسة العرب القضاء على هذه الطوائف الممزقة لجسد الأمة العربية عليهم تطبيق العلمانية لأنها أثبتت فعاليتها في القضاء على الصراعات في بلاد الإفرنج، لأن الصراع الطائفي هو صراع سواء كان عند العرب أو عند الغرب.

1/ الديموقراطية:

إن واحدة من أكثر الإشكاليات إلحاحا اليوم هي إشكالية الديموقراطية؛ حيث يُرفع شعارها في العالم العربي كما لو أنها **أيديولوجيا خلاصية جديدة** على حد تعبير طرابيشي، فالعرب أو نقول مثقفيهم يراهنون على الديموقراطية مثلما راهنوا بالأمس على الاشتراكية، وقبل الأمس على الوحدة، ففي مواجهة التخلف وذل الجرح النرجسي تم زرع الديموقراطية في المِخْيَال العربي على أنها تقوم مقام كلمة **"سمسم"** لفتح مغارة الحداثة. (طرابيشي، 2006، ص ص 9، 10)

وضد الأطروحة التي ترى أن الديموقراطية معجزة يصوغ ويطور صاحب كتاب **"في ثقافة الديموقراطية"** الإشكاليات التالية حول المسألة الديموقراطية في الوطن العربي.

أ/ إشكالية المفتاح والتاج

مصاغة كالتالي: **هل الديموقراطية هي المفتاح السحري الذي نفتح به جميع الأبواب المقفلة، أم أن الديموقراطية هي على العكس من ذلك التاج الذي يتوج التطور العضوي للمجتمع المعني وينهض مقياسا على مستوى تطوره؟ وبعبارة أخرى: هل**

الديموقراطية شرط مسبق أم هي نتيجة وحصيلة لتطور مجتمع بعينه؟(المصدر نفسه، ص 10)

يرى المفكر السوري أن النظرة الأيديولوجية الخلاصية ترى أن الديموقراطية **{ كدواء لجميع الأدواء، فإنه لا يجري أبدا التفكير في أن الديموقراطية قد لا تكون قابلة حتى كترياق؛ لأن يتحملها الجسم المريض}**(طرابيشي، 2006، الصفحة نفسها)وفرضا أن الديموقراطية هي دواء نافع في جميع الأحوال؛ فهي حمالة لرواسب سلبية **{ وقد كانت ممارسة الديموقراطية حتى في مسقط رأسها (...) ممارسة جديرة بالوصف بأنها جهنمية أكثر منها فردوسية}**(المصدر نفسه، ص ص 10، 11)بمعنى أن الديموقراطية نفسها حينما ظهرت في أمريكا وفرنسا وإيطاليا...الخ كانت لها جوانب سلبية، زد على ذلك أن كل بلد له خصوصياته وعليه التطبيق الميكانيكي للديموقراطية في بلد آخر سيخلف أثارا سلبية من منطلق أن ذلك البلد في تركيبته الاجتماعية والنفسية ...الخ يختلف عن البلد الأول.

ب/ إشكالية الثمرة والبذرة

هل الديموقراطية ثمرة يانعة برسم القطف أم هي بذرة برسم الزرع؟

إن الخطأ الذي تروج له الأيديولوجية الخلاصية حسب طرابيشي هي أنها تنظر إلى الديموقراطية على أنها ثمرة تُنال بغير جهد ولا تعب؛ وأن المجتمع العربي سيستيقظ ذات يوم ويجد نفسه ينعم في جنة الفردوس، وهذا خطأ جسيم لكي يعيش المجتمع العربي لحظة الديموقراطية الفعلية عليه أن يكافح ويجتهد ويتعب لكي ينال هذه الثمرة الطيبة في نهاية المطاف.(المصدر نفسه، ص 11)

ج/ إشكالية مفتاح المفتاح

قبل أن تكون الديموقراطية مفتاحا لجميع الأبواب الأخرى؛ فإنها هي نفسها بحاجة إلى مفتاح، ولعل بابها لا يفتح إلا إذا توفرت جميع الشروط، ويعتقد جورج طرابيشي أن هناك شرط واحد هو الأكثر غيابا في الوعي العربي وهو شرط **الحامل الاجتماعي للديموقراطية**(طرابيشي،2006، ص 12)

إن الديموقراطية هي من اختراع الحداثة، ومن اختراع الطبقة الصانعة للحداثة أي **البرجوازية** يقول المفكر السوري **{ نستطيع أن نقول في شبه يقين إن**

الديموقراطية، وإن لم تتواجد حيثما تواجدت البرجوزاية، فإنها تغيب حيثما غابت}(المصدر نفسه،الصفحة نفسها)

وفي الوطن العربي عرفت براعم الديموقراطية تفتحا غداة الاستقلالات العربية يوم كانت البرجوازية برعمية هي الأخرى، وحينما غابت هذه الأخيرة غابت براعم الديموقراطية، يقول طرابيشي عن تغييب البرجوازية {**إن المجتمعات العربية تدفع اليوم غاليا ثمن تغييب البرجوازية وإفقادها اعتبارها الأيديولوجي، ليس فقط أنظمة سلطوية فوقية تنزع إلى تأبيد نفسها في "جمهوريات وراثية"، بل كذلك على شكل حركات شعبية تحتية، واعدة أو منذرة بشموليات من نوع جديد بما لا يقاس في القطيعة مع الديموقراطية وقيم الحداثة.}**(المصدر نفسه، ص 13)

وحتى الحداثة الغربية نشأت في أحضان البرجوازية، فلقد قامت ثورة 1789 الدولة البرجوازية الحديثة، الممركزة والديموقراطية، فأُدخِل التقدم المستمر للعلوم، والتقسيم العقلاني للعمل الصناعي، في الحياة الاجتماعية، وفي الوقت نفسه أُدخِل التقسيم الاجتماعي للعمل انقسامات سياسية عميقة؛ الذي سينضاف إليهما النمو الديموغرافي والتمركز الحضاري، والتطور الهائل لوسائل الإعلام والاتصال يطبعان بصورة حاسمة الحداثة كنمط حياة قائم على التغير والتجديد، وعلى القلق وعدم الاستقرار.(مجموعة مؤلفين، 2009، ص 192)

د/ إشكالية الشرطي ورجل المباحث

يقول جورج طرابيشي عن هذه الأمثولة حيث أن الشرطي هو الدولة ورجل المباحث المجتمع المدني بقوله { **ولعلنا نستطيع التمثيل على ازدواجية الدولة والسلطة هذه، في الأنظمة الديكتاتورية العربية بإشكالية "الشرطي ورجل المباحث". فالمأزق الديموقراطي العربي يتمثل في أن الشرطي مجرّد من سلاحه أمام رجل المباحث}**(طرابيشي، 2006، ص 14)

ويرى المفكر السوري أنه لا مخرج من هذا المأزق سوى رد الاعتبار إلى الدولة وسلطة القانون ومبدأ العنف الشرعي، لذلك لكي تتحقق الديموقراطية يجب أن يكون هناك حضور فعال لرجل الشرطة؛ لأنه إذا غاب هذا الأخير عمت الفوضى والخراب.

ه/ إشكالية الذئب والحمل

يرى المفكر السوري أنه كثيرا ما يقترن الفكر الديموقراطي العربي بنزعة شعبوية، يمكن اختصارها في هذه الشعار"**الدولة ضد الأمة**" فالدولة ذئب والأمة حمل، ويصرح صاحب مشروع نقد النقد أن الفكر الشعبوي هو الفكر السائد إجمالا في الساحة الثقافية العربية؛ وهو الفكر الذي يضع كل رهانه على الشعب أو على المجتمع المدني **فيؤبلس الدولة ويؤمثل الأمة**، غير أن طرابيشي يرى أن المجتمع المدني العربي يصح تسميته بالمجتمع الأهلي الذي يعاني من عدة أمراض مزمنة.(المصدر نفسه، ص 15)

يذهب المفكر السوري إلى أن هناك مرضين من أمراض المجتمع الأهلي العربي لهما تأثير على حياة الديموقراطية هما: **الفئوية الطائفية واللوبوية الدينية**، فالطائفية الدينية لا تتمثل في كون أكثرية ضد أقليه على مستوى المناصب العليا للدولة فقط بل على المستوى الشعبي أي ثنائيات إسلامية/ مسيحية، سنية / شيعية، عربية/بربرية أو كردية...الخ وعليه تسعى هذه الجماعات إلى الانتصار للمرشح الذي من دينهم أو طائفيتهم أو اثنيتهم. (طرابيشي، 2006، ص ص 15، 16)

وجدير بالذكر هنا أن هذه الصراعات قد تؤدي إلى حمام من الدماء؛ وكترياق لهذه الصراعات لابد من تطبيق العلمانية على أرض الواقع، لأن ما يصلح كعلاج للطائفية في العالم الإسلامي يصلح أيضا في نظيره الإسلامي، والاحتلال الأمريكي على العراق على سبيل المثال كشف عن الطائفية التي عشعشت لقرون طوال في شكل صراع سني/شيعي بقي إلى اليوم حيا في المستنقع العراقي نتيجة تغييب الحل العلماني(مجموعة مؤلفين، 2015، ص 154)

وحتى القرن التاسع عشر لم يكن من وجود معترف به للأقليات، إلا أن تكون طائفية أو دينية، ومع ظهور فكرة الدولة القومية أخذت الأقليات تتحدد وفق معايير جديدة لغوية أو إثنية دون نفي المعيار الديني؛ ليتولد من اجتماعها مفهوم الأقلية القومية، ولقد طورت ثورة الحداثة مبدأ العلمانية حلا لمشكلة الأقليات الدينية والطائفية ولكن هذا الحل على عبقريته كشف عن قصوره أمام الأقليات القومية، لذلك قدمت أوروبا في القرن التاسع عشر مشهدا غريبا ومتناقضا لدول **متسامحة على الصعيد الديني ومتعصبة على الصعيد القومي**، على عكس امبراطوريات العصور

الوسطى القائمة على تعصب ديني وتسامح قومي.(طرابيشي، 2008 ص ص 189، 190)

أما فيما يتعلق بثاني الأمراض فهو اللوبيات الدينية الممولة بالدولارات النفطية، وهذه اللوبيات تدخل في صراع عنيف مع مبدأ من مبادئ منظومة القيم الديموقراطية وهي أساسا مبدأ **حرية الفكر والاعتقاد،** وإذا أخذنا في الاعتبار الضغط الذي تمارسه هذه اللوبيات من تحت، وأجهزة الرقابة للأنظمة العربية من فوق فلنا أن نتحدث عن اعتقال مبادئ الديموقراطية، لذلك تم تفريق الكثير من المثقفين عن زوجاتهم وتهديد البعض بالقتل وشنق آخرين.(طرابيشي، 2006، ص ص 16، 17)

فعلى الرغم من أن المجتمعات العربية تعيش مرحلة الاستقلال إلا أنها لم تحقق مفهوم المجتمع المدني بما يتوفر من شروط تكريس للحريات وحقوق الإنسان، كما أنه على الرغم من الامكانيات والثروات الطبيعية لا تزال المجتمعات العربية تابعة للغرب تبعية مطلقة، وأكبر مظاهر التخلف تظهر في المجال الثقافي التعليمي.(بن سباع، 2014، ص ص 505، 506)

والغريب في الأمر أن أغلب الدول العربية التي تحمل شعارات الديموقراطية وتدعي تطبيقها هذه الأخيرة؛ إما تعمل على عزل الأنتلجنسيا عن المشاركة السياسية، أو تقوم تدجينهم تدجينا سياسيا، حتى لا تستطيع أن تميز بين المثقف وغير المثقف.(بوساحة، 2013، ص 86)

و/ إشكالية الصندوقين

من هذا كله يخلص المفكر السوري إلى إشكالية أخيرة هي **إشكالية صندوق الاقتراع وصندوق جمجمة الرأس،** وهنا يشير **طرابيشي** إلى أن عدد الأميين عند العرب يزيد عن مئة مليون، لذلك الموضع الأول للديموقراطية ليس في صناديق الاقتراع وحدها وربما أيضا الرؤوس فالديموقراطية **{ لا يمكن أن تكون نظاما للحكم بدون أن تكون نظام للمجتمع (...) ومع أنها بالتعريف نظام للدولة، فإنها بالجوهر نظام للمجتمع المدني، معنى ذلك أن لا لديموقراطية سياسية بحتة: فالديموقراطية هي بالأساس ظاهرة مجتمعية، والمجتمع هو في المقام الأول نسيج من العقليات}**(المصدر نفسه، 17)

لذلك يجب أن لا يتم اختزال الديموقراطية في جانبها السياسي فقط المتعلق بصندوق الانتخابات فقط، بل يجب أن تكون هناك ديموقراطية في الفكر وفي الدين وأن يكون محركها هو الثقافة.

ولتحقيق الحداثة لابد من إعطاء الأهمية للعلم؛ فالعلم بما فتحه من إمكانيات تقدم لا متناهية، ألغى الطابع الدائر على نفسه للعقل التأملي، كما ألغى الإيقاع الدوري لحركة التاريخ وارتد بالحضارة –على حد تعبير شبنغل- من شكل الدائرة إلى شكل السهم، وهذا السهم الذي مازال مندفعا إلى الأمام هو ما يطلق عليه اليوم اسم "**الحداثة**" وهي الحداثة القابلة لأن ترفض من طرف العقول التي لم تشارك فيها كما يقول طرابيشي، ولكنها غير قابلة لأن تتجاوز. (طرابيشي، 1996، ص 98)

إن الحداثة لا يمكن أن تأتي من العدم، من منطلق أنها تتشكل من دعامتين العلمانية والديموقراطية كما يقول طرابيشي، ومن المعلوم أن كل من العلمانية والديموقراطية ثمرة تحتاج إلى جهد للحصول عليها، فالحداثة تحتاج إلى طول تنظير لتأصيلها وتأسيسها، لذلك فهي تحتاج لكل ما يسبقها حتى تتميز عن كل ما يسبقها، وتعدم كل ما يسبقها لتأتي بالجديد المخالف للسابق وهكذا.(صفدي، 1990، ص 224)

7- خاتمة ونتائج الدراسة:

من خلال ما تقدم نستنتج:

- على مستوى المفاهيم نبه طرابيشي إلى أنه لولا الصدمة مع الغرب لكانت كلمة "ثقافة" وكلمة "تراث" تعني ما تعنيه قديما.
- عالج المفكر السوري إشكالية الحداثة باستنبات مفهوم الجرح الأنثروبولوجي الذي ينتمي إلى المجال البسيكولوجي؛ حيث أوضح أن الإنسان العربي ما زال يعاني من هذا الجرح الذي ويجب إيجاد دواء مناسب له للدفع بالإنسان العربي نحو الأفضل.
- أن طريق الحداثة يتطلب العلمانية والديموقراطية، ويجب أن يتجسد ذلك في الأذهان قبل كل شيء.
- العلمانية هي آلية وفلسفة العيش المشترك؛ فمن خلالها يتم القضاء على الصراع الطائفي الذي ينخر جسد الأمة العربية الإسلامية. وهذا يحتاج إلى صبر طويل وإلى تنظير وجهد وأن يشارك جميع أطياف المجتمع لتحقيقها.
- أما الديموقراطية فيراها المفكر السوري كثمرة تحتاج إلى جهد وتحتاج إلى تضحية وصبر وتضافر جهود الدولة والمجتمع المدني لقطف هذه الثمرة والانتفاع بها.
- أن الحداثة لا تُخلق من العدم؛ كما أنها ليست هدية ربانية ينزلها الإله على قوم دون قوم؛ بل هي ثمرة برسم الاجتهاد والجد والعمل لتحصيله.

قائمة المراجع:

أ ـ المصادر

1. طرابيشي جورج، (2013)، *الأعمال النقدية الكاملة*، للنشر،(ج1، ط1)، الإمارات العربية المتحدة، دار مدارك.
2. طرابيشي جورج، (1991)، *المثقفون العرب والتراث التحليل النفسي لعصاب جماعي*، (ط 1)،لندن، رياض الريس للكتب والنشر.
3. طرابيشي جورج ، (2012)، *مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة*، (ط)3، لبنان، دار الساقي.
4. طرابيشي جورج، (2006)، *هرطقات عن الديموقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية*، (ج1، ط1)،، بيروت ـ لبنان، دار الساقي و رابطة العقلانيين العرب.
5. طرابيشي جورج، (2008)، هرطقات 2، *عن العلمانية كإشكالية إسلامية – إسلامية*، (ج2، ط1)، بيروت، رابطة العقلانيين العرب ودار الساقي.
6. طرابيشي جورج، (2000)، *من النهضة إلى الردة تمزقات الثقافة العربية في عصر العولمة*، (ط1)،لبنان، دار الساقي،
7. طرابيشي جورج ، (1996)، *نقد نقد العقل العربي : نظرية العقل*، ، (ط1)، بيروت، دار الساقي.

ب ـ المراجع:

8. بوساحة عمر،(2013)، *الفلسفة وأسئلة الراهن أعمال ملتقى*، (دط)، جامعة الجزائر، مخبر الدراسات الفلسفية والأكسيولوجية.
9. بوقاف عبد الرحمان ، (2017)، *مقالات فلسفية*، ، ج1، (ط1) ، الجزائر،. الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية.
10. الجابري محمد عابد ، (1994)، *الخطاب العربي المعاصر دراسة تحليلية نقدية*، ، (ط 5)، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.
11. سعيد إدوارد ، (2006)، *الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق*، ت: محمد عناني، (ط)1، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع.
12. سليمان علي ، (1979)، *قراءة في الواقع السياسي العربي*، (دط)، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

13. الطهطاوي رفاعة رافع، (2012)، *تلخيص الإبريز في تلخيص باريز*، (دط)، مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
14. كوش دنيس ، (2007)، *مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية*، ت : منير السعيداني، مراجعة: طاهر لبيب، (ط1)، بيروت، المنظمة العربية للترجمة.
15. عويضة كامل محمد محمد ، (1996)، *علم النفس بين الشخصية والفكر*، مراجعة: محمد رجب البيومي، (ط1، دار الكتب العلمية، لبنان
16. مجموعة مؤلفين، (2009)، *إشكاليات الفكر المعاصر*، ت: محمد سبيلا، (ط1)، الرباط، منشورات الزمن.
17. مجموعة مؤلفين، (2007)، *العلمانية في المشرق العربي*، (ط1)، دمشق ــ سوريا، دار أطلس.
18. مجموعة مؤلفين،(2015)، *العلمانية والسجلات الكبرى في الفكر العربي المعاصر من هواجس التأسيس المتعالي*، (ط1) ، لبنان، بيروت، دار الروافد الثقافية.

ج ـ الموسوعات:

19. مهنانة إسماعيل، (2014)، *موسوعة الأبحاث الفلسفية الفلسفة العربية المعاصرة تحولات الخطاب من الجمود التاريخي إلى مآزق الثقافة والأيديولوجيا*، تصدير فتحي التريكي، ط1، المغرب، منشورات ضفاف والاختلاف ودار الأمان.

د ـ المعاجم والقواميس:

20. ابن منظور أبي الفضل محمد بن جلال الدين، دس، *لسان العرب*، تحقيق: عبد الله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، ، المجلد1، دط، ، القاهرة، دار المعارف.
21. ابن منظور أبي الفضل محمد بن جلال الدين، دس، *لسان العرب*، تحقيق: عبد الله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، ، المجلد6، دط، ، القاهرة، دار المعارف.
22. الفيروزآبادي مجد الدين بن يعقوب ، مراجعة: محمد الاسكندراني، *القاموس المحيط*، دار الكتاب العربي، دط، لبنان، 2011.

ـ ـ القواميس باللغة الانجليزية:

23. Denis Girard, 1998, Cassell's Frensh Dictionary, frensh-english english frensh, , fourth macmillan, printing printed in the USA, cass tld.